



التاريخ : 25/8/2020- آخر تحديث : 1:08

مذكرات الماريشال ليوطي عن المغرب 17 : تدشين أول كلمتر من رصيف ميناء الدارالبيضاء سنة 1919

أواصل هنا، في هذه الفسحة الجديدة، الخاصة برمضان 1438 (الموافق لسنة 2017)، ترجمة مذكرات الماريشال ليوطي، الخاصة بمهامه في المغرب. بعد أن ترجمت منذ سنتين أجزاء كبيرة منها ممتدة بين سنوات 1912 و 1917. وهي مذكرات هامة جدا، كونها تعنينا كمغاربة، كونها تقدم لنا معلومات دقيقة عن كيف تشكل المغرب الحديث بعد احتلال فرنسا وإسبانيا لبلادنا، إثر توقيع معاهدة الحماية يوم 30 مارس 1912، والتي مرت عليها الآن 105 من السنوات.
وأهمية هذه المذكرات، كامنة، ليس فقط في كونها وثيقة تاريخية، بل أيضا في كونها كتبت من قبل صانع قرار، لم يكن عاديا قط في تاريخ المغرب الحديث، أثناء وبعد صدمة الإستعمار، الماريشال هوبير ليوطي، أول مقيم عام لفرنسا بالمغرب.
لقد جاء إلى المغرب بعد سنوات قضاها في مدغشقر ثم بالجنوب الغربي للجزائر عند منطقة بشار، وبعدها بمدينة وهران بالجزائر، ليمارس مهام المقيم العام بالرباط ل 14 سنة كاملة. وهي أطول فترة قضاها مقيم عام فرنسي بالمغرب. ليس

هذا فقط، بل أهميتها التاريخية أنها كانت مرحلة تأسيسية لشكل الإستعمار الفرنسي في إمبراطورية كان لها منطقها الدولتي في التاريخ، في كل الشمال الغربي لإفريقيا، هي الإمبراطورية الشريفية المغربية. وأن كل أساسات الدولة الحديثة المغربية قد وضعت في تلك المرحلة، على مستوى إعداد التراب، أو التنظيم المالي، أو القضاء، أو التعليم أو الفلاحة أو المحافظة العقارية أو الجمارك. ومن خلال ما دونه في مذكراته نتتبع بدقة كيف ولدت كل تلك الترسانة التنظيمية للدولة المغربية الحديثة، بلغة صاحبها التي لا تتردد في وصف ذلك ب «العمل الإستعماري»، المغلف بالدور الحضاري. وهي شهادة فيها الكثير من جوانب الجرأة الأدبية التي تستحق الإحترام. ثم الأساسي، أنه كرجل سياسة كتب شهادته وأرخ للأحداث عبر مذكراته الخاصة، من وجهة نظره، ولم يلد بالصمت، بل كان له حس تأريخي، يتأسس على إدراكه أنه يسجل كلمته للتاريخ.

لقد صدرت هذه المذكرات أول ما صدرت سنة 1927، أي سنة واحدة بعد مغادرته المغرب (بقي مقيما عاما بالمغرب من 1912 إلى 1926). ثم أعيد نشرها سنة 1944، في طباعة رابعة، قبل أن يعاد نشرها من قبل كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة 2012، إحياء للذكرى 100 لاختيار الرباط عاصمة للمغرب.

لنستمع لصانع من صناع التاريخ المغربي الحديث والمعاصر، كيف يروي قصة الأحداث من وجهة نظره. أو كما قال الزعيم اليساري الفرنسي فرانسوا ميتران عن مذكراته الخاصة هو: «هذه هي الحقيقة من الجهة التي كنت أنظر منها». أي أن للحقيقة دوما جهات أخرى للرؤية والنظر، يكملها عمليا المؤرخون.

الدار البيضاء: فاتح يناير 1919

(تتمة)

ثقة وامتنان تجاه المواطنين المدنيين الفرنسيين، الذين ساعدونا جميعنا، خلال السنوات الأربع الأخيرة. بل، كانت داعمة لي، وهي مدركة لواجبها الوطني الكبير، ومدركة أيضا لواجباتها بإزاء ما وفرته لها الحكومة من رعاية مما مكنها من تحقيق أرباح كثيرة. والثقة المتبادلة تلك، أطلب منهم أن يواصلوا في ترسيخ أسبابها.

إن تهدئة المغرب، التي هي الضمانة لتحقيق الأمن هنا، قد طالها بعض التراخي بسبب النصر في الحرب، وبسبب الإطمئنان لوحدة الصف. لكن، ليكونوا متيقنين أن حماية مصالحهم هي وكدنا الأكبر، وأنها عصب عملنا كله. إذ يكفيهم الإطلالة على ما تبدله إدارتنا من جهد خرافي للتأكد من حرصنا على تلبية حاجياتهم وتحقيق رضاهم، وكي نوفر لهم كل أسباب الإنتاجية، التي تجعلكم أبناء بلدي تستفيدون من ثمارها.

ثقة وامتنان، أخيرا، تجاه الشعب المغربي. آه، علينا أن لا ننسى أبدا الدعم الوفي الذي خصصه لنا. لأنه ما أن وضعنا أقدامنا في هذه البلاد الواعدة، حتى اندلعت الحرب. كانت تمة توجسات طبيعيا. وما زلت أذكر التحوط الذي قابلت به الحكومة الفرنسية إرسال قناصة مغاربة (إلى فرنسا)، وهم غير متأكدين من إمكانية التعويل عليهم (في الحرب). لكن ما فعلوه بجبهات أروبا، لست في حاجة إلى إعادة تذكيركم به. فالتاريخ وحده من سينصفهم. دون إغفال أن وفاءهم هنا، هو الضمانة الكبرى لقوتنا وأمننا. مثلما أن عمالهم، قد برزوا بحنكة في كل معاملنا الحربية. مثلما أن فلاحيهم، قد انخرطوا بقوة في مضاعفة الإنتاجية، من أجل نقل محاصيلها إلى بلادنا التي استفادت منها كثيرا.

إن موقفهم ذاك، أثناء الحرب، لا يمكننا أبدا نكرانه أو تناسيه. وعلينا أن نبرهن عن ذلك، من خلال واجب الإحترام لهم، لقوانينهم، لتقاليدهم، وكل ما يشكل هوية وروح هذا الشعب. لأنه سيكون من التناقض، في اللحظة التي كانت فيها لحقوق الشعوب المكانة المتقدمة ضمن معركتنا وواحدة من شروط نصرنا، أن ننكر ذلك على من غرسنا رايتنا بينهم، والذين، علينا على العكس من ذلك، أن نقدم من خلالهم المثال الحي على تحقق نظام للعدالة والشراكة الحرة، التي نطمح إلى تعميمها على العالم.

والأن، وبعد أن قمت معكم بجولة على أهم النقط التي تفرضها علي مسؤولياتي كقائد للحكومة، في أفق تمثل مخرجات هذه السنة. فاسمحوا لي، أن أنزاح قليلا، عن ثقل مهامي هذه، وأن أشترك معكم في فرحة رأس السنة الجديد. فلنوحد قلوبنا وأرواحنا وأفكارنا، من خلال توجيه العرفان والإمتنان لكل البيوت التي طالها الأسى بدون تمييز. وأيضا إلى قتلانا، إلى أمواتنا الأبطال، ولنرفع نخبنا لفرنسا. فرنسا الأبدية والمنتصرة.

الدار البيضاء: 15 يوليوز 1919
بعد فاتح يناير، كان علي التوجه إلى أقصى الجنوب، حيث كان الجنرال «بويميرو» قد أصيب بجرح بليغ، يوم 15 يناير، بضواحي تافيلالت. فتحملت هناك، لأسابيع، مهام القيادة العسكرية المباشرة.
ذلك أنه بسبب رحيل الوحدات التي تم تسريحها، والتي عوضتها بشكل بطئ الوحدات العائدة من فرنسا وبأعداد أقل بكثير، فإن الوضعية كانت جد مقلقة. فلقد تجددت هجومات من يقاوموننا بشراسة أكبر، خاصة في أعالي كل حوض ملوية. لقد تم تدمير ثمان من مواقعنا واحتلالها، وكان لا بد من حملة عسكرية شاملة، حتى نستعيدها واحدة بعد الأخرى.
يضاف إلى ذلك، أنه بسبب تبعات الحنق العام الناتج عن تخفيف الإجراءات القمعية، التي كانت معتمدة طيلة أيام الحرب (العالمية الأولى)، والتي أدت إلى تسيب في الكثير من الوحدات، فإن هجوم الصحافة كان لاذعا. فكان لزاما مواجهة كل أنواع تلك المقاومات بصرامة وإعادة الثقة والنظام.
ذلك، تطلب مني تنقلا متواصلا هنا وهناك، بين مختلف جبهات القتال وكذا جبهات أخرى مختلفة، تبرز بشكل فجائي غير منتظر.
بالتالي، فقد تواصلت أعمالنا رغم كل الظروف. هكذا، ففي شهر يوليوز، تم تدشين الرصيف الكبير لميناء الدار البيضاء، الذي تواصلت فيه الأشغال ببطء، نعم، لكن بإصرار، بسبب الظروف التي كنا نواجهها أثناء الحرب. وبلغ الألف مترا، بفضل حيوية وصلابة من يعود له الفضل في تحقيق ذلك الإنجاز، السيد «دولير» المدير العام للأشغال العمومية، الذي توفي مؤخرا وهو يزاول مهام المفتش العام للقناطر والطرق. فألقيت في يوم ذلك التدشين الكلمة التالية:
«أيها السادة،
إن ما جئت أبحث عنه هنا، ليس خطبا، بل منجزات. لأن الخطيب المفوه هنا، في هذا الجمع، هو «الكتلة» التي ستنتهي الألف متر للرصيف.
وحتى نقيم جيدا أهميتها، لنذكر فقط، أنه في يوم 1 غشت 1914، كان الرصيف لا يتجاوز 350 مترا في أصله. هكذا، فخلال خمس سنوات من الحرب، حيث كل شئ كان ضد العمل السلمي التنموي، تم إنجاز 650 مترا جديدة من الرصيف بالميناء. والتي أضيف إليها، حتى نكون دقيقين، بناء مجال مغطى منته منذ 1915، ثم الميناء الصغير (للصيد البحري) المنتهي سنة 1918، ثم تسوية أراض عدة وأحواض ومختلف المصالح الموازية.
إن هذا العمل، لهو من المنجزات التي تحسب لشركة «كروزو»، التي رغم الأشغال الكبرى للحرب، من صناعة للمدفعية والقنابل والذخيرة ومختلف الآليات، قد نجحت في إنجاز هذا المشروع المدني للسلم، مما رسخ ذكاء وعيها الوطني وتقتها الكبرى في المغرب. فكل تقديرنا، إذن يذهب صوب مؤسسة «شنايدر» وأطرها الحاليون أو السابقون، وبخاصة إلى من اسمه حاضر في كل القلوب السيد «بول شاي» (1).
إن عرفاننا، يذهب أيضا صوب كل عمالكم وأطركم، الذين انخرطوا بكل قواهم في العمل لإنجاز هذا المشروع. فهم قد أدركوا أن الأمر لا يتعلق بمشروع للكماليات، بل بعصب الحياة الإقتصادية للمغرب. وأنهم بضمان تنميته، إنما يقدمون خدمة جليلة، لباقي إخوتهم من مختلف المهن به. وأحيي الشركة على انفتاحها على موظفيها، وتحقيقها لمطلب تحسين أوضاعهم المالية والإجتماعية.
إن امتناني يذهب أيضا، إلى الرأي العام البيضاوي، الذي دعمنا منذ البداية بقوة، من أجل إنجاز هذا الميناء، والذي تبدى من خلال إنشاء غرفة التجارة، التي ترأسها بحنكة رئيسها الحيوي السيد «غيرنيي».
وإن امتنانا الكامل، يذهب، أخيرا، إلى من هندس مشروع الميناء كله، ودافع عنه بصلابة السيد «دولير».»
(يتبع)

هامش:

(1) هي واحدة من أقوى المجموعات الصناعية الفرنسية، التي تأسست سنة 1836. تخصصت في البداية في مجال الصناعات الحديدية، ثم في مجال صناعة مختلف أنواع الأسلحة. قبل أن تصبح بعد الحرب العالمية الثانية متخصصة في صناعة السفن والصناعات الكهربائية وقاطرات القطارات، ابتداء من سنة 1948. ولقد تم تأسيس مؤسسة صناعية فرعية لها بالمغرب، ابتداء من سنة 1902، تحت إسم «الشركة المغربية»، وهي أول من لعب دورا محوريا في شق السكك

الحديدية بالمغرب في بداية القرن 20، وكذا في توسعة وتجهيز ميناء الدار البيضاء وميناء القنيطرة. ولقد ولجت «الشركة المغربية» التي ترأسها في مرحلة من المراحل «يوجين شنيدر الثاني» إلى بورصة باريس سنة 1920.

الكاتب : إعداد: لحسن العسبي

بتاريخ : 15/06/2017

أخبار مرتبطة